رواية هذا العدد

(عثرة الأمل [1])

بقلم الكاتب الكبير والروائي الشهير

الاستاذ خليل بيدس

كان الدون « بخوزه ريغواندواروس » على أعظم جانب من الكياسة والظرف والجمال بين أبناء الأسر النبيلة الغنية في اسبانيا . وقد تقلّد منصباً سامياً في البلاط الملكي في مدريد وهو لا يزال في مقتبل العمر . ولم يمضِ على ذلك مدة طويلة حتى كلفت بحبه البرنسة سيسيليا ابنة الملك . وأحبها هو كذلك . وانتشر أمر هذا الحب . وكان من جراء ذلك أن قامت قيامة رجال البلاط على الدون خوزه وتواطأوا على فتك به . فلم يرَ الدون طريقاً للنجاة الا بالفرار من مدريد وكل اسبانيا . وقد خرج متنكراً في ليلة حالكة الظلام ، تاركا أحبّ الناس الى نفسه وأقربهم الى قلبه . وبعد أن طاف في بعض جهات أوربا جاء الى ايطاليا ونزل في مدينة « سان جرمين » الواقعة على ضفاف أحدى البحيرات : ولسان جرمين هذه بما يكتنفها من الحدائق والرياض ، منظرٌ من أدهش المناظر الطبيعية الرائعة . ولو كان الدون خلي البال وكان قلبه معه لعدّ نفسه في ذلك الفردوس الأرضي الجميل أسعدَ خلق الله حالا

***

مضت السنون ، والدون خوزه في سان جرمين . وقد ألفَ المكان وأحبه السكان ، وصار له في قلوبهم المكانة الرفيعة ، وهم لا يدرون شيئاً من ماضيه

(١) بنيت هذه القصة على حادث تاريخي غرامي قديم العهد أنشأها أحد كتبة ذلك العصر من ادباء الاسبانيول ، ونقلت الى بعض اللغات الاوربية الاخرى ونقلناها نحن عنها دون أن نبدل شيئاً من حقيقة الحادث أو نحيله عن صبغته

واتفق أنه بينما كان يتنزه في ذات يوم بزورقه في البحيرة أبصر على الشاطيء فتاة في نضارة الشباب ، ممشوقة القوام بديعة المحيا ، وقد غاصت بقدميها العاريتين في الماء حتى الركبتين ، وأخذت تغسل شعرها الذهبي المسترسل ، وتتغنى بصوت كان على سمع الدون أعذب من خطرات النسيم بين عذبات الاشجار : فشعر بقوة تجذبه الى الفتاة . ولم تكد هي تشعر باقترابه اليها حتى نظرت اليه بعينين زرقاوين تحكي زرقتهما زرقة مياه تلك البحيرة . ولم يكن في تلك النظرة الا اللطف ممزوجاً بالرقة ، والا الجمال الرائع ممزوجاً بالسحر

فبهت الدون وشعر بخفقان في قلبه . وكان قد نزل من الزورق واقترب الى الفتاة فحياها وهو لا يدري ماذا يفعل . ولم تنفر الفتاة منه : وكأنها شعرت بما شعر هو نحوها

فقال الدون — هل تأذن سيدتي اللطيفة ان أجالسها ما دمت لا أرى لها مؤنساً في هذا المكان ؟

فقالت — لا أحب الي من ذلك ، لانك كما يظهر لي رجل شريف

ولبث الاثنان في ذلك المكان سويعة وهما يتجاذبان أطراف الحديث . . . وعرف الدون أن اسم الفتاة « مرغريت باغانيلي » فقال لها — وهل يكون لي الشرف أيتها الحسناء أن تعرفيني بوالديك ؟

فذعرت الفتاة وقالت — لا . لا . . أن هذا لن يكون

فبهت الدون وقال — ولم ذاك ايتها الجميلة ؟ . . فانا الدون خوزه أحد نبلاء اسبانيا ، وليس في قومك كلهم واهل هذه البلاد جميعهم من يتجافى عن التعرف بي !

فقالت — ليس هذا ما يحول دون ذلك أيها الدون . . وانما هناك سر خفي يحيط بمولدي . وقد أصبح هذا السر من الخرافات والاساطير . بل هو أقرب الى أضغاث الاحلام منه الى الحقيقة . . فاذا أحببت أن يكون بيننا علاقة ما فأقسم لي بشرفك أن لا تسأل أحداً عن والدي ولا تبحث عن سر مولدي . .

وكانت مرغريت وهي تتكلم قد ازداد تورد وجنتيها فازدادت إشراقاً ورواء فلم يمالك الدون ان أقسم لها على ما أرادت . . فمدت اليه يدها فقبلها . ثم ودع أحدهما الآخر على أن يجتمعا في اليوم التالي في ذلك المكان

* * *

واجتمع الدون بمرغريت ، وكان قد أعدّ زورقه للنزهة في البحيرة فركباه وسارا يريدان الشاطىء الآخر وهما يتآنسان ويتناغيان

فقال الدون — انت اليوم جميلة جداً يامرغريت ، أجمل منك أمس !

فقالت — نعم . . لأن الحب يزيد في جمال البنتيات

فتنهد الدون وقال — ولكن حوادث الحياة كثيراً ما تنجلي عن عكس ذلك فان الحب لا يجلب لصاحبه الاّ الألم والحزن وذبول الجمال

قالت — قد يكون هذا عند الطبقة الراقية من البشر . . وما أنا الا فتاة بسيطة ساذجة من طبقة العامّة . . فلا يجلب لي الحب الا السعادة والهناء

فضحك الدون وقال — كوني على اعتقادك هذا ، لا تغيريه ، ولا تنظري الى هذه الحياة الا كما تحبين ان تكون

قالت — نعم . . واننا بعد عشر دقائق سنكون على الشاطىء الآخر ، فنجلس معاً في ظل شجرة كبيرة قديمة أحب الجلوس تحتها ، وأسمعك من أغاني ما يطربك

قال — ما ألطف ما تعدينني به . . لأني أحب الغناء ولاسيما إذا كان بصوتك العذب . . . واعلمي أيتها العزيزة ان السنين العديدة التي قضيتها في هذه الجهات كانت كلها شقاء وآلاماً الى ان رثى الله لعذابي فأرسل الي ملاكاً يعزّيني ويحبب الي الحياة ويمهد لي سبل السعادة ويشاطرني هناءها . . وهذا الملاك هو انت . . .

وقضى الاثنان في نزهتهما حتى الماء ، وهما في مثل هذا الحديث ، وقد ارتبط قلباهما بوثاق الحب ، فعادا خطيبين ، كلٌّ منهما مستند على صاحبه . .

وكانت مرغريت تعيش في منزل رجل شيخ يدعى « بطرس فورلي » وكان حضوراً مشهوراً في سان جرمين . فلما أخبرته بما تمّ لها مع الدون خوزه قام اليها فقبلها وهو يظهر كل ارتياح وسرور . وما جاء مساء اليوم التالي حتى كان الخبر قد انتشر في جميع جهات المدينة وأصبح حديث القوم كبيرهم وصغيرهم ، وقد أعجب الجميع بمرغريت لحصولها على هذا الحظ السعيد باستيلائها على قلب الدون خوزه المشهور بحسبه وملايينه

* * *

وفي ذات صباح، وذلك بعد عقد الخطبة ببضعة أيام نهض الدون خوزه من فراشه مسروراً طيب النفس، فدخل عليه حاجبه وقال — بالباب يا مولاي جمهور من سكان المدينة، واكثرهم من الطاعنين في السن، جاءوا يريدون مقابلتك ليهنئوك بالخطبة ومعهم هداياهم

فقال الدون — دعهم يدخلون واحداً واحداً

وما كاد الحاجب يخرج حتى دخل على الدون رجل في سن الخمسين ممتلىء نشاطاً وعافية وقد حمل باحدى يديه ورقة كبيرة، فتقدم الى الدون وقال — سمعت يا مولاي انك تبغي الزواج بمرغريت باغانيلي، فجئت اهنئك واشكرك

فقال الدون — ومن تكون انت ؟

قال — أنا جواني ألبروزيو حفار القبور في هذا البلد، ومرغريت ابنتي الوحيدة

فهبت الدون ولم ينبس بكلمة

فقال جواني — ولما كنت ياسيدي فقيراً وليس في طاقتي ان أقدم لابنتي باثنة (دوطة) جئت أقدم لسموك هذه الورقة — وهي وثيقة الدفن مجاناً .. فمتى شاءت السماء ان تنقل سموك الى العالم الثاني، وجاء خادمك أو أحد ذويك بهذه الوثيقة الى مكتبي، تهيأ الادارة في الحال بحفلة الدفن كما يليق بمقامك العالي

وما كاد الدون يسمع هذا الكلام حتى امتلأ غضباً ووثب من مكانه الى خنجر معلّق على الجدار، فخرج جواني في الحال ناجياً بنفسه

ودخل بعده رجل يقال له باولو ميليسارو، وكان بسن الستين، وقد حمل على عاتقه كيساً كبيراً وضعه عند قدمي الدون وقال بثبات جأش — ما كدت أسمع بخبر خطبتك يا مولاي لابنتي مرغريت حتى استفزّ السرور نفسي فبادرت أقدم شيئاً لسموك

فقال الدون وهو لايزال في حالة الغضب — وهل انت أيضاً والد مرغريت ؟

— نعم يا سيدي

— وجواني البروزيو ؟

— لا علاقة لي به

— وهل يمكن ان يكون للفتاة أبوان ؟

— لا أعلم الاَّ ان مرغريت هي ابنتي الوحيدة ، وهذا الكيس باثثتها

— وماذا في الكيس ؟

— سبعة أرطال من الجراد المجفَّف ، وقد عُنيت بها لتكون لسمك أفخر طعام

فتطيب الدون وذهل . . ولم يُفق من ذهوله الاَّ بعد ان خرج باولو ودخل زائر جديد من المهنئين يقال له جوزف رالديني ، وكان شيخاً طاعناً في السن ومهنته الحدادة . وقد حمل بين يديه زنجيراً ثقيلاً ، فألقاه على الارض وقال — هذه هديتي لابنتي . . انها الآن ملاك طاهر ، ولكن قد يغلب عليها طبع والدتها فتسير في طريق العناد والعصيان ، فلا يبقى لك ايها المولى الاَّ ان تقيدها بهذا الزنجير كما كنت أنا أقيد والدتها من قبل ، فتعود الى الاذعان والطاعة . . وما أحسنه علاجاً لكبح جماحها وتذليل نفسها

وكان الدون خوزه يسمع هذا الكلام وهو كالمأخوذ ، وقد غاص في التأملات ولم يلبث ان شعر بصداع أليم . . وكان الحداد قد خرج فاستدعى الدون خادمه وقال — لا تدخل عليَّ أحداً الا بعد ساعتين ، لاني في حاجة الآن الى الراحة

* * *

وأفاق الدون خوزه بعد ساعتين من الزمان ، وكان النوم قد أنعش قواه ، فأمر خادمه بادخال باقي المهنئين ، لانه أراد ان يسمع كل ما يريد القوم ان يقولوه له عن مرغريت .

فدخل رجل كان مشهوراً في سان جرمين بالسحر والشعوذة ، وقد سمى مرغريت ابنته . وكانت هديته عشرين زجاجة صغيرة من السوائل المختلفة وقد قال — انها أحسن علاج يقي مرغريت من الخيانة ، لئلا تقتفي آثار والدتها

وتلاه رجل بستاني ، وكانت تقدمته شيئاً كثيراً من الفاكهة ثم دخل نجار يحمل بين يديه مشنقة حسنة التركيب

وتبعه راع يحمل خنوصين

ودخل بعد هؤلاء كثيرون حتى أربى عدد المهنئين على المئة ، وامتلأ المنزل بالهدايا . وكان كل من الزائرين يدعو مرغريت ابنته ويتكلم ما شاء عنها وعن والدتها حتى أقبل المساء ، وقد ضاق صدر الدون خوزه وأظلمت عيناه وثقل سمعه وعاوده الصداع بشدة ، فانطرح على سريره معيياً ونام نوماً ثقيلاً لم يفق منه الاَّ في الصباح التالي . . وكانت أقوال المهنئين لا تزال ترن في اذنيه وهو لا يهتدي الى وجه يقف معه على الحقيقة . وقد ندم أشد الندم على وعده لمرغريت بعدم البحث عن سر مولدها . ورأى ان زواجه بها الان بعد الذي سمعه عنها وعن والدتها قد أصبح مستحيلا ، ما لم يستطلع كلَّ خفي من أمرها ولو كان في ذلك حنث في يمينه ونقض لعهوده . وعزم لذلك ان يجتمع بالمصوِّر بطرس فورلي الذي كانت مرغريت ساكنة في منزله ويرغمه على الاعتراف بما أراد

وفي الحال نهض فارتدى ثيابه وقد أخفى فيها خنجراً حاداً وانطلق الى منزل المصوِّر وهو في حالة غريبة من الذهول والاضطراب . واتفق ان مرغريت لم تكن آنئذٍ في المنزل لان من عادتها ان تذهب كل يوم الى مدرسة الفنون . وكانت قبيل وصول الدون قد ذهبت الى تلك المدرسة ولم يبق في المنزل الاَّ المصوِّر . فدخل عليه الدون وكان قد بلغ منه الهياج مبلغه . فاستقبله الشيخ مرحِّباً . ولكنه ما كاد يتفرَّس في وجهه حتى ذعر واصطكت ركبتاه خوفاً . فقال له الدون — علمت من مرغريت انك انت ربيتها كل هذه المدة وعنيت بها منذ الطفولة

فقال بطرس — نعم يا سيدي ، وهي لا تزال عندي بمقام ولدي وأعز من روحي

— ومتى شرعت تعنى بتربيتها ؟

— منذ جيء بها الي

— فكم سنة تكون قد أقامت عندك ؟

— سبع عشرة سنة

— وكم كان عمرها حينما جيء بها اليك ؟

— ثلاثة أسابيع فقط

— وأين ولدت ؟

— لا أعلم . . لان ذلك لم يذكر في الكتاب الذي وصل الي معها

— وأي كتاب هذا ومن كتبه ؟

— والدتها

— ومن جاء بمرغريت الى سان جرمين ؟

— حاضنتها . جاءت بها في مركبة فاخرة ، وكان يصحبها خادمان من النبلاء أحدهما يحمل كيساً مفعماً بالذهب ، والآخر كتاب الوالدة

— أرني الذهب والكتاب

— يستحيل علي الان ذلك ياسيدي . لان والدتها قد استحلفتني بكتابها أن لا أطلع على ذلك أحداً الا عريس مرغريت ، وبعد الزفاف فقط ، وأن لا أخبر أحداً عنها شيئاً قبل ذلك

— ومن كانت والدتها ؟

— ألم تقل لك مرغريت ان ذلك سر لا يجوز لاحد أن يكشفه قبل الاوان :

— نعم قالت ذلك

— أو لم تعدها بعدم التنقيب عن هذا السر ؟

— نعم وعدتها وأقسمت

— والآن !

— والآن أريد أن انكث عهدي . . .

— وكان الدون يتكلم بهذا وعيناه تقدحان شرراً ، وبطرس ينظر اليه ويرتعد وجلا ثم قال الدون بصوت يتهدج غضباً وقد صوب الى الشيخ نظراً حاداً — قل لي سريعاً من كانت والدة مرغريت ؟

— لا أعلم

— أنت كاذب يا هذا !

— أقسم لك اني لا أعرفها

— أهي من سان جرمين !

— كلا .

— أهي ايطالية الجنس ؟

— كلا

— وهل أقامت في هذه المدينة مدة طويلة ؟

— شهراً واحداً

— كم مضى على ذلك من السنين ؟

— ثماني عشرة سنة

— وهل عادت بعد ذلك الى وطنها ؟

— نعم

— وماذا كانت تعمل هنا ، واين كانت تسكن ؟

— كانت تسكن على شاطىء البحيرة وتقضي أيامها بالتكتم

— وهل كانت ذات بعل حينما قدمت الى سان جرمين ؟ أم تزوجت هنا ؟

— لا أعلم

— بل يجب أن تعلم وتبوح لي بكل شيء

— ان اسم والدة مرغريت لا يجوز لي أن أبوح به إلا لزوج مرغريت على شرط أن لا يكون اسبانياً

— وهذا سر جديد لا بدلي من الوقوف عليه . . . وكم كان لوالدة مرغريت من العمر حين ولدت الطفلة ؟

— ثماني عشرة سنة

— أذكر لي اسمها يا بطرس ، فقد عيل صبري ، وأخشى أن يخونني جلدي

— وقسمك يا مولاي ؟

— لم يبق سبيل الى المحافظة على القسم بعد الذي سمعته أمس من جمهور الوافدين علي للتهنئة . . فقد كان كل منهم يدّعي أنه والد مرغريت . . ولما كان من اغالة الرأي أن لا أقترن بمرغريت الا بعد وقوفي على حقيقة نسبها وأصلها ،

جئت اليك وأنا أروم أن لا يفوتني شيء من هذه الاسرار ، حتى اذا كانت مرغريت أهلا لي اقترنت بها .

— اذاً فانت أيها السيد لا تحب مرغريت !

— بل أحبها وأعبدها . . غير أن الجمهور الذي زارني أمس قد ملأ نفسي شكوكا وريباً . فخشيت أن لا أكون سعيداً مع مرغريت إن اقترنت بها قبل استجلاء هذه المبهمات والغوامض

فهزّ الشيخ رأسه وقال — لو كنت محباً لمرغريت صادقاً في الحب لما باليت بكل ما سمعته من هذه الخرافات .. وما دام الحب قد تزعزع في قلبك فلا بأس من إطلاعك على كل ما تروم .. فسأذكر لك اسم والدة مرغريت ، وأريك صورتها وخاتمها الذي أمرت ان تتختم به ابنتها يوم الزفاف ، وأقرأ لك كتابها الذي كتبته بيدها . وقد خبأت كل ذلك في غرفة سرية تحت هذا المنزل ، فهيا بنا

قال هذا وسار والدون يتبعه . وقد فتح المصور باباً نزلا منه الى نفق تحت الارض . . .

وبعد ساعة خرج الدون خوزه من ذلك النفق ، وقد ازداد وجهه اكفهراراً وشحوباً ، وغارت عيناه ، وابيضّ شعر رأسه ، وانحنى ظهره . . . ثم عاد الى منزله مطرق الرأس لا يلوي على شيء . . .

وما هي الا ساعة حتى كتب الى المسجّل الشرعي في رومية كتاباً هذا مفاده :

« بحال وصول هذا البلاغ اليك أرجو ان تحوّل جميع اموالي الموجودة في المصرف الوطني الى اسم الفتاة « مرغريت باغانيلي » في سان جرمين . وقل لها ان خطيبها « الدون خوزه » قد غرق في البحيرة ، واسمها الجميل على شفتيه . . . »

وأرسل الكتاب مع احد خدامه . . ثم اخذ مسدسه وانطلق جهة البحيرة .

وفي اليوم التالي عثر الصيادون على جثته وكانت ملقاة على الشاطي مضرّجة بالدماء

* * *

لم تكن والدة مرغريت الا البرنسة سيسيليا التي هام بها الدون خوزه ، وهامت هي به . ولم تكن مرغريت الا ابنة البرنسة سيسيليا . فهي اذاً ابنة الدون خوزه .

القدس ٣١ اكتوبر

خليل بيدس